تمض هنيهة حتى دوى طلق نارى من نوافذ إحدى الثكنات ، فكان هذا نذيرا بإنفاذ المؤامرة ....

ذلك إذ لم تكد تلك الطلقات تدوى فى الفضاء ، حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون فى هذا الطريق الغائر فى الأرض ، فالباب ضخم مقفل ، والجنود الأرناؤود من ورائهم ومن فوقهم وعن يمينهم وشمالهم ، يتناولونهم برصاص بنادقهم .

لم يستطع المماليك دفاعا عن أنفسهم ، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة ، أو الرجوع القهقرى ، أو النزول عن جيادهم ، لضيق المكان الذى حصروا فيه ، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم ، وهيهات أن تعمل السيوف فى ذلك الموقف شيئا ...!!! ، فانصب عليهم الرصاص وحصدوهم حصدا ، وجاءهم الموت من كل مكان .

ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تتخبط بدمائها ، أمكن الباقون أن يترجلوا عن جيادهم ، وأرادوا النجاة بأنفسهم من تلك الحفرة المهلكة التى كانوا مكدسين فيها ، فتسلق بعضهم الصخور المحيطة بالطريق بعد أن خلعوا ما كان عليهم من الفراوى والملابس الثمينة ، ليسهل عليهم الفرار ، ولكن الرصاص كان يتلقفهم أينما صعدوا ، فلا تلبث أن تتساقط جثثهم فى جوف الطريق ، ومن هؤلاء شاهين بك الألفى ، الذى تمكن فى عدة من مماليكه أن يتسلق الحائط وصعد إلى رحبة القلعة ، وانتهى إلى عتبة قصر صلاح الدين ، فعاجله الجنود الأرناؤود برصاصة أردته صريعا ، واستطاع سليمان بك البواب